* أبو المعاطى أبو النجا ، وعالمه القصصى .

إذ كنت تظن أنك حين تدخل العالم القصصى للكاتب الهادىء الراضى فى الظاهر : أبو المعاطى أبو النجا سوف تنعم براحة البال .. فأنت واهم .. الكاتب نفسه لا ينعم براحة البال ، هدوؤه ورضاه لا يتجاوزان السطح فما الذى يحفزه على أن يمنحك هدوءا ورضا ؟ حتى لو أراد – حتى لو وجد الحافز ، فإنه لن يستطيع . اقرأ قصة : " الوهم والحقيقة " التى يستهل بها أبو المعاطى الجزء الثانى من مجموعه أعماله القصصية رجل ينتابه – فجأة – شك قاتل بأن زوجته تحب رجلا آخر عطيل جديد يتطوع كى يزرع الشك فى حياته الهانئة ويصر على أن يهدمها بيديه ، غير مستعين برمز الشر وزارع الشكوك " أياجو " الزوج هو عطيل وأياجو معا . والرجل الوحيد الذى كان يستطيع أن يقوم بدور هادم السعادة الزوجية يرفض باتا أن يقوم بالدور . ينصح الزوج المرة بعد المرة أن يتريث أن يدقق فى الأمور ، أن يجرب الخطة بعد الخطة حتى يصل إلى الحقيقة فلم ييأس من استجابة صديقه الأحمق يختفى فجأة ولا يعود لا يعرف أحد أين ذهب ولا متى يعود ، إن كان مقدرا له أيه عودة غير أن هذا كله لا يفت فى عضد الزوج أنه يحتضن ظنونه فى حب يربت على الشك ويرعاه ، يربيه ويرفض أن يتنازل عنه كأنما الشك هو البديل الصحى الوحيد للحب كأن هذا الشك هو الانجاز الأعظم فى حياة الزوج العاطفية ، ولو تنازل عنه انهارت حياته كلها .

تحزن الزوجة وتصبح شبحا لما كانته فى الماضى ويقوم بينها وبين زوجها خندق عميق من الحزن كلاهما يغرق فى أحزانه الخاصة ويدرك ألام الطرف الآخر ولكنه أضعف من أن يفعل شيئا سوى تحمل مطارق ثقيلة يتهاوى

تحتها ، وتسحقه بعد الحب المزدهر أصبح ما يربط بين الزوجين خيط دقيق من الشفقة المشتركة مبعثة أنهما معا يدركان معنى الهزيمة التى حاقت بهما وتنتهى القصة والزوج يدفع عن نفسه بضراوة تهمة الجنون لا هو ليس مجنونا يقول لنفسه كل ما يريده الآن أن تعترف له زوجته باسم من تحب أن يكرهها على أن تتنازل عن كبريائها ولو بتهديد المسدس ذلك هو الهدف الذى يعيش الزوج من أجله الآن غير أن هذا لا يتم . لا الزوجة تعترف . ولا الصديق الغائب يعود ، ولا اللعبة التى تقتل كل من يشارك فيها تستمر الذى يعود بالفعل هو الحضور الماضى للزوجة حزنها وضحكها وصوتها وضعفها وصبرها كانت الزوجة قد ذهبت دون أن يملك لها رفضا أو قبولا عادت لتصبح من جديد جزءا من نسيج الحياه فى بيت يصر صاحبه على أن يعانق الجنون !

فى قصة لا تبتعد كثيرا عن ثنائية الحقيقة والوهم قصة : " ذلك الوجه وتلك الرائحة " موقف مشابه بين زوج وزوجته ، الزوج يشم رائحة تملأ الجو رائحة دخان تتبعه أينما ذهب فى الشارع فى السيارة فى المطعم الفاخر الذى اختارته الزوجة كى تتعشى فيه مع زوجها .

كانت الزوجة تنكر أن هناك رائحة ما . ترفض فى حسم أن هذه الرائحة موجودة ، وإزاء إصرار الزوج على أنه يشم رائحة الدخان بالفعل ، كانت تترضاه باختراع أسباب معينة لهذه الرائحة ربما كانوا يحرقون القمامة . أو ما أشبه غير أنها تدعو الزوج إلى أن ينسى الموضوع كله ويمتع برائحة الدخان الحقيقية التى تنبعث من ركن الشواء فى المطعم ذلك هو الدخان الوحيد الجدير بأن يشمه المرء ويستمتع به . يفزع الزوج الفزع كله ، ويداخله يأس عميق ، هو وحده الذى يرى الدخان ويشم رائحته ، ويداخله يأس عميق ، هو وحده الذى يرى الدخان ويشم رائحته ، المارة وأصحاب السيارات وزوجته وبقية

الناس لا يحسون للدخان وجودا هو وحده الذى يرى الدخان ويشم رائحته ، المارة وأصحاب السيارات وزوجته وبقية الناس لا يحسون للدخان وجودا هو وحده الذى يشعر به مدت له الزوجة يدها بقطعة من جبن على طرف سكين كى يذوقها – كانا يتسوقان فى أحد محلات السوبر ماركت ، فأوشك أن يقول لها : إن الجبن به طعم الدخان ولكنه أمسك وقال لنفسه : حين تدرك أنك وحدك ترى أو تسمع أو تشم ما لا يحس به سواك ، فأنت على حافة الجنون ، أو غارق فى حلم كئيب . لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها الزوج أحلاما خاصة يرفع فيها صوته بما يخاف من مجرد التفكير فيه يقفز من الأعالى ويواجه المخاطر ويصفح وجوه من لا يحب رؤياهم إذ ذاك قال لنفسه لم لا أنتهز الفرصة وأفصح لزوجتى عن رأيى الحقيقى فى الموضوع الذى كنت دائما اتجنب الحوار معها فيه ؟ لماذا لا يقول لها إننى احتقر أهلك وأهلى معا احتقر صلحهم وخصامهم ، وصوتهم العالى الذى لا يقول شيئا وإصرارهم على أن يرهنوا زماننا لحساب زمانهم ؟ غير أنه بدلا من أن يفعل شيئا من هذا غامت رؤيته ونظر فإذا الحمال الذى يحمل البضاعة المشتراه كى يوصلها إلى السيارة يشبه من قريب " حسن أبو شفة " إذ ذاك ينفك رباط " رول " الأحداث وتندلق أمامه فجأة وقائع الماضى حسن أبو شفة هذا شاهد مع الراوى الفاجعة التى ظلت كامنة فى نفس الزوج منذ أن كان حدثا لايزال احترقت قريته بأكملها تركتها النار جثة هامدة تنبعث منها رائحة القش والتبن والأخشاب وظلت الرائحة شهورا طويلة تملأ سماء القرية وأرضها تختلط بالطعام والشراب يشمها أهل القرية والقرى المجاورة ، حتى بعد أن أعيد بناء القرية ظل الولد يشم الرائحة فى أحلامه وفى يقظته ويسمع صراخ حسن أبو شفة فى ذلك اليوم الكئيب . سكت حسن عن الصراخ من بعد ولكنه ظل يمشى ذاهلا فى طرقات القرية يحكى ،

حتى لمن لا يسمعونه قصة ذلك اليوم ويؤكد لسامعيه أن الحريق لم يكن بسبب الريح بل هو غضب من الله حل بالقرية جزاء وفاقا لمن يستحقون العقاب . وحين عاد الزوج من رحلته إلى الماضى وجد أن كل شىء يخذله . خذله الحمال الذين توهم أنه حسن أبو شفة عاد إلى الحياة من جديد . خذله الناس الذين لا يشمون سوى رائحة الشواء ، خذله الحلم والواقع حين لم تظهر ألسنة النار بعد الدخان خذلته زوجته حين عرضت عليه أن تدعوه إلى العشاء فى كازينو " الشط الذهبى " على نغمات الموسيقى . استسلم الزوج للدعوة ولنداء البحر ولقاء هوائه ، وقال لنفسه : لو طاردنا الحريق إلى الشاطىء فسوف تكون هناك فرصة للنجاة ألا يفضل ركاب السفن المحترقة أن يموتوا غرقا ؟

يقدم كازينو الشط الذهبى عروضا مدهشة للترفيه عن ضيوفه أحدها مشهد سفينة تحترق فى عرض البحر بمرأى من الضيوف الركاب يقذفون بأنفسهم إلى المياه طلبا للنجدة هذا مجرد عرض يقول مقدم البرنامج فلا تنزعجوا يمسك الزوج بهذه " القشة " ويقول لنفسه : أيمكن أن يكون هذه العرض المثير حقا هو مصدر تلك الرائحة ؟ ..

وافقت الزوجة لأول مرة وقالت : ربما كان ذلك حقا فلا تقلق لم يعد الزوج يحتمل القلق لم يعد راغبا فى التفريق بين الحلم واليقظة لا أحد يريد أن يوقظه من الحلم ، العرض لا يريد أن ينتهى ، صرخاته تختنق داخله ، صرخات ركاب السفينة تغرق معهم مقدم البرنامج يقول : سيستمر العرض طويلا والعشاء جاهز .. يمكنكم أن تتناولوه فى الشرفة كى تأكلوا وتتفرجوا وجد الزوج نفسه يندفع أمام الجميع إلى قلب البحر كانت هذه حريته الوحيدة الآن ، لو كان يراه حلما فلتكن تلك نهايته ، ولو كان واقعا فهذه أفضل نهاية كان آخر ما سمعه بعد

صـــرخة ظـــنها صـــرخة زوجته : لا تنزعجوا أيها السادة فذلك أيضا جزء من العرض .

فـــى هـــذه القصة المتعمقة يزاوج أبو المعاطى بين موضوع الوهم والحقيقة وموضوع عدم التواصل بين الزوجين وانعدام هذا التواصل شىء يلفت النظر فى بعـض قصص أبو المعاطى . الرجل نافر ناشز ، تحاول الزوجة أن تروضه أن تشده إلى صفها وهو دائما يقيم العقبات ، فى قصة " التعب " يزعم الزوج لنفسه أنـــه يحس تعبا لا يعرف مصدره ، كانت الزوجة أول من لاحظ أنه يردد بمناسبة وبـــلا مناسبة كلمة التعب وكل ما يشير اليها وما يشتق منها أصبح هذا الشعور بالـــتعب هوســـا تشفق الزوجة عليه منه ، يميز الزوج بين التعب العادى الذى يزول بزوال أسبـــابه ، وهذا النوع الفريد يصفه بأنه تعب يسرى فى جسده كله كأنمـــا مع الدمـــاء ينـــام ويقوم معه ، يعمل ويستريح معه ، بعبـــارة أوجز : " يســـكنه " ! وحـــين يسأله الطبيب النفسى الذى ذهب يستشيره أن يصف تعبه يقول ! كانت المتاعب هى الاستثناء فى حياتى وليس القاعدة كنت أعرف أسباب المـــتاعب وأحـــددها وأحـــاول الـــتغلب عليها ، لكنها كانت تتزايد يوما بعد يوم وتتشابك وتتداخل ، لا أستطيع أن أمسك بها أو أبعدها أو أزيحها مؤقتا إلى مكان آخر يقول له الطبيب تعبه هذا هو أهون أنواع التعب إن يكن سببه مجهولا الآن فهناك أمل فى أن يعرف هذا السبب فى المستقبل أما التعب الأعمق ، والأشد فتكا فهـــو ذلـــك الذى تعرف أسبابه ولا يكون هناك أمل فى علاج هذه الأسباب وهذا الـــنوع الخطير يعانى منه الطبيب النفسى ، ولا يملك له دفعا إلا بالتغيير الجذرى لأحوال المجتمع يتصادف المريض والطبيب بعد هذ يقرران التواصل والبحث فى ألوان التعب وأسبابه ، أما نحن فيختلف لنا شعور واضح بأن تعب الزوج مرجعه رفـــض الزواج من أساسه ، رفضه كمؤسسة تشكل قوة ضغط على حرية الفرد

ينفر منها إلى هذا الملجأ النفسى الذى لا يمكن أن يلومه أحد إن هو لجأ إليه إنه مـــريض مجهد متعب فماذا يريد منه المجتمع وهذا حاله ؟ وكيف تتوقع منه أن ينهض بتبعات الزواج وهو بهذا القدر من التشتت وانعدام القدرة أو حتى الرغبة فـــى مواصلة البقاء ؟ كان يمكن لهذه القصة أن تكون أفضل مما هى الآن ، لو أن أبـــو المعاطى حسم أمره فلم يشتت انتباهه بين موضوع العلاقة بين الزوجين وبـــين ذكريات الماضى فى القرية ، وفحص المرضى الذين يملأون عيادة طبيب الأمـــراض الباطنـــية ، وقراءة عناوين الصحف والمجلات التى تتكوم على مائدة غـــرفة الانـــتظار ، وتطل منها متاعب العرب فى نضالهم ضد اسرائيل ومشكلة موقف الصين من أمريكا وروسيا ، وإصرار فرنسا على تفجير قنبلتها النووية .

إن هذا التشتت هو الوجه السالب لظاهر إيجابية واضحة ومؤثرة فى فن أبو المعاطى ، وهى التأمل ومحاولة الغوص فيما وراء الأشياء . نجد مثلا طيبا جدا مـــن هذا التأمل فى القصة المعنونة : " آخر السهرة " فى القصة رجل يعود من سهرة مع أصدقاء ويقود سيارته وهو متعب راغب فى النوم وفجأة تلوح له قطة بيضـــاء تحـــتل منتصـــف الطريق وتقف جادة لا تتزحزح ، ولا يبدو أنها تشعر بالخطـــر الداهم الذى يهدد حياتها تقف القطة شبه متحدية تتبع قانونها الخاص أدارت رأسها فى مواجهة السيارة والضوء دون أن تطرف عيناها ، وكأنها تريد أن ترى الرجل أو أن يراها هو . حين رأى عينيها الميتديرتين فى شريط الضوء تنفذان إلى قلبه الملىء بعيون القطط الملونة : السمراء والبيضاء والمرقطة حين رأى فـــى عينـــيها إصرار على الوقوف كان لابد أن يوقف اليارة بأى ثمن ، أن يكـــافح القطـــة والسيارة معا وكلاهما له منطق لا شأن للآخر به لا يمكن – هو عاشـــق القطـــط – أن يسمح بأن تموت القطة تحت عجلاته أن يكون هو قاتلها أوقف الرجل السيارة بعد جهد جهيد ، وود لو نزل ليحاسب القطة على ما فعلته

بــه ثم تردد ربما يكون أصاب القطة مكروه مفاجىء فعجزت عن الحركة أخيرا تتحرك القطة أدارت رأسها إلى الجهة التى جاءت منها ، وفجأة رأى الرجل أربع قطــط صغيرة بيضاء بلون الأم لا يزيد عمرها على أربعة أسابيع كانت القطة فى مــرحلة مواجهة الحياة والعبور إلى الجانب الآخر من الطريق ، تقودها الأم إلى الدنــيا بــلا خوف ودون كلمات استقبل الأم قطاطها فى منتصف الطريق ومشت بجــوارها تعبر الشارع فى هدوء واختفت معها تحت سيارة فى الجانب الآخر . حيــنما عاد الرجل إلى بيته وجد النوم الذى كان يغالبه قد طار منه بدلا منه كان يشــعر بصــفاء عجــيب من ذلك النوع النادر الذى يغمر الكون والإنسان وحين يجيــىء يعز على المرء أن يتركه وينام فى تلك اللحظة اتصل الرجل بسر الحياة والأحياء فشمله ذلك الصفاء .

فى عالم أبو المعاطى قصص أخرى تمتع وتستفز فى أن لعل أبرزها " مقهى الفردوس " التى تقدم صورة فاتنة للخوف والترقب والانتظار الممض الذى ينتاب واحــد مــن المنــاضــلين يتوقع مقدم رفيقه فى الكفاح فتتبدد أعصابه وتتطاير شــظايا ، ثم يفاجأ بأن من يقدم فعلا هو أحد رجال الملاحقة .. والقصة مكتوبة بفنية عالية ولباقة واضحة فى استخدام عناصر المفاجأة .